ثورة يوليو والجنود

د. اسماعيل صبرى عبد الله

تم العمل الحاسم فى تغيير السلطة ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ على يد الجيش، وكان هذا الاسلوب وقتئذ ولعدة سنوات تالية موضوعا لتباين فى الفهم واختلاف فى التفسير . فقد أخذت الامور فى ظاهرها طابع الايقلاب العسكرى بمعنى استخدام وحدات الجيش فى الاستيلاء على السلطة بشكل مفاجىء وبدون مشاركة من الجماهير، وكان تراث الفكر الثورى العالمى ، بل والفكر الليبرالى كذلك، قد اشاع نظرة الشك فى كل عمل سياسى تقوم به القوات المسلحة على اعتبار أنه لا بد أن يخدم فى النهاية مصالح رجعية . حقا كان هناك فارق واضح بين ماحدث عندنا وبين الصورة التقليدية للانقلاب العسكرى كما شهدتها بلدان أمريكا اللاتينية مثلا خلال قرن من الزمان : **لم تكن قيادة الجيش الرسمية هى التى استولت على الحكم لتحافظ على مجتمع يتحلل من الانهيار ، وأنما قيادة**

جديدة من الضباط الشبان لها برنامج سياسى برز فيه منذ البداية طرد الملك وتحديد الملكية الزراعية

وقد أثبتت الايام نجاح القيادة الثورية لحركة الضباط الاحرار فى تحديد مجرى الثورة، والاستجابة المستمرة لتطورات مقتضياتها الموضوعية ، وأتضحت الى جانب الاهداف الوطنية أهداف اجتماعية تبلورت حول شعار بناء الاشتراكية فى بلادنا. ولكن لا بد لتأصيل ما يصلنا اليه من محاولة السعى لتوفير أعلى درجة من الفهم الموضوعى لتجربتنا الثورية . وينبغى أن تستهل عملية التوضيح الفكرى بمحاولة فهم ((**نقطة البدء فى الثورة**)) .. فهم العملية الثورية الحاسمة الاولى التى فتحت الطريق أمام كل التغييرات اللاحقة . **أن الثورة علم** . وكل علم هو مجموعة من القوانين الموضوعية التى تفسر الظواهر التى يدرسها لاعن طريق صبها فى قوالب معدة سلفا ، وأنما عن طريق ادراك طبيعة القوى الاجتماعية التى شاركت فى أحداثها . لابد اذن من أن نفهم كيف تمت الثورة فى بلادنا بأسلوب لم يكن مألوفا قبلها وأن تحدد الظروف التى جعلت هذا النجاح ممكنا .

وفى تقديرنا أن مثل هذا الفهم ينبغى قبل كل شىء أن نهتم بتحليل طبيعة دور الجيوش فى البلدان الخاضعة للاستعمار أو التى كانت خاضعة له ، وأن نفهم حقيقة تنظيم الضباط الاحرار ، وأن ندرك المكان الذى حدده الميثاق للقوات المسلحة .. للجنود .

الجيش والثورة الوطنية

كان المفهوم السائد فى الفكر الثورى العالمى الى ماقبل بضعة سنوات عن دور القوات المسلحة فى الثورة مستوحى من تجربة الجيوش فى الدول الاستعمارية . وفى تلك الدول كانت الجيوش دائما أداة القهر الطبقى وموئل أشد فئات الرجعية شراسة ، وأعدى أعداء التقدم الاجتماعى . ولهذا لم يكن الثوريون ينتظرون منها الا الشر والقهر . ولايرون فى قيام الجيش بالعمل السياسى الانذير نكسة ومقدمة لمصادرة الحريات الديمقراطية ، وفرض أعنف أشكال الديكتاتورية . ولم تكن تلك الصورة السوداء من وحى عاطفة « العداء للعسكرية » ، بل أن هذا العداء كان نتيجة لها ، لان معالمها تحددت من خلال التجربة المريرة للطبقة العاملة والطبقات الشعبية فى أوروبا .

وأول ما يلفت النظر فى الجيوش الاستعمارية **هو تكوينها الطبقى** فضباطها يشكلون طائفة متميزة تتوارث حمل السلاح جيلا بعد جيل ، تكاد تكون مقفلة لاتستوعب عناصر جديدة الا استثناء ونواة هذه الطائفة فى العادة ضباط ينتمون الى أسر من ((**النبلاء**)) ، من بقايا الاقطاع الاوروبى ، تسير منذ عدة قرون على أن يذهب أبنها الاكبر الى الجيش ومعظم هؤلاء «النبلاء العسكريون» لا يؤمنون حتى بالديموقراطية البورجوازية ويعادون النظم البرلمانية ، ولكنهم يضعون أنفسهم فى خدمة الاحتكارات لانها تمثل فى نظرهم عنصر القوة والنظام القادر على قمع « الدهماء » ، ولان معظم أسرهم قد أرتبطت خلال القرن الماضى بالاوضاع الرأسمالية واندمجت الى حد كبير فى الطبقة الرأسمالية الكبيرة . ومجالس ادارة المؤسسات الاحتكارية الكبرى تضم عادة عددا كبيرا من أبناء هذه الاسر ، كما أنها تتسع لاستيعاب الضباط المتقاعدين . ومن المعروف **أن الجيش الالمانى** كان يعتمد بصفة خاصة على الضباط ((**اليونكر**)) **من** البارونات الاقطاعيين البروسيين ، ومازال حتى الان عدد من ضباطه تتحلى أسماؤهم بكلمة ((**فون**)) التى تنسبهم الى أرض معينة كان لاجدادهم عليها سلطان أقطاعى . بل أن **فرنسا** نفسها وهى أعرق الديمقراطيات البورجوازية يحفل جيشها بالقادة الذى يحملون المرادف الفرنسى لكلمة ((**فون**)) **وهو** ((**دى**)) ديجول ، دى لاتر ، دى هوتكلوك ، بوابيه دى لاتور .. الى دى كاستر قائد قاعدة دياں بيان فو الشهيرة الذى يفخر بأنه جنرال ابن جنرال حتى بداية القرن السابع عشر .. الى فيجان الذى كان أبنا غير شرعى لملك بلجيكا .. الخ . وهذه الفئة من الضباط هى التى أرست عبر قرون التقاليد العسكرية للجيوش الاستعمارية ونجحت بصفة عامة فى أن تستوعب كل العناصر التى تصل بكفايتها العسكرية الى مراكز القيادة وأن تصبغ عليها أيديولوجيتها الرجعية حتى لو كانت تلك العناصر من أصل شعبى . ولعل المثل الصارخ على ذلك هو **جوان** ، مارشال فرنسا ، الذى ولد فى أسرة متواضعة جدا والذى يقف اليوم الى يمين ديجول . أما الجنود فى الجيوش الاستعمارية فغالبيتهم من الفلاحين ، وقد نجح الرأسماليون فى البلاد التى صفت الاقطاع على يد البورجوازية مثل فرنسا ، فى أن تغرس مبدأ الملكية الاستغلالية فى صفوف الفلاحين وأن تتخذ من تمسكهم بها وسيلة لتعبئتهم ضد الطبقة العاملة التى تطالب بالاشتراكية وأن تجعل منهم بصفة عامة سندا للقوى المحافظة مستغلة التخلف الثقافى السائد فى الريف . وهكذا تمكن نابليون الثالث من الاعتماد على أصوات الناخبين فى الريف للوصول الى السلطة وتصفية ثورة ١٨٤٨ فى فرنسا وضرب الحركة الاشتراكية التى لعبت دورا هاما فيها . ويعمل الضباط عادة فى تلك الجيوش على غرس روح الطاعة العمياء — التى تضرب بها الامثال فى الجيش الالمانى بالذات — وازدراء الحركات

ماكسيميليان روبسبير

ولد فى مدينة آراس بشمال فرنسا سنة ١٧٥٨ لاب محام وام من اسرة تملك مصنعا للبيرة . درس القانون واشتغل بالمحاماة وتشبع بفلسفة روسو . كان فى سن الحادية والثلاثين عضوا بالجمعية التاسيسية التى كان تكوينها بداية الثورة الفرنسية الكبرى. وقد تزعم فى داخلها الجناح اليسارى (٣٠ عضوا فقط) . وفى خارجها عمل بين الجماهير فى باريس من خلال « جمعية اصدقاء الدستور » التى انشأها والتى اشتهرت باسم « نادى اليعاقبة » . قاد ثورة شعب باريس فى اغسطس ١٧٩٢ من اجل عزل الملك ومحاكمته . انتخب نائبا عن باريس فى « المؤتمر الوطنى » الذى اعلن الجمهورية ، وحكم على الملك بالاعدام وكان من قادة جناحه اليسارى المعروف باسم « الجبل »

وحين احدقت جيوش الملكية الاوروبية بالثورة شكل المؤتمر « لجنة السلامة الوطنية » - وكان روبسبير من ابرز اعضائها - التى نجحت فى تصفية اعضاء الثورة فى الداخل وفى هزيمة الجيوش النازية مستندة الى حماسة الجماهير الشعبية وشعورها الوطنى . ولكن ظروف الحرب وما صحبتها من غلاء ادت الى اثراء التجار والمضاربين وتدهور ظروف نفسية الجماهير فانتشرت بين شعب باريس اتجاهات ترمى الى الاستمرار بالثورة فى اتجاه تحقيق المساواة الفعلية بين المواطنين عن طريق تحديد الملكية بطشت الحكومة فى مذبحة جرينال الشهيرة بقادة هذه الاتجاهات فقد روبسبير تاييد الثورة الشعبية التى رفعته الى السلطة وعندئذ تآمرت ضده البورجوازية واعدمته فى يوليو ١٧٩٤ بعد ان خلصها من خطر الاقطاع والغزو ومن خطر الحركات الشعبية . وعمل مؤرخوها على تشويه سيرته ووصف حكمه بعهد الارهاب وهو الرجل الذى اشتهر بالصدق والامانة والعفة والفضيلة حتى اطلق عليه الشعب لقب « من لا يمكن افساده » . وهو الذى استقال فى شبابه من منصب القضاء حتى لا ينطق حكما بالاعدام

الشعبية واستنكار العمل السياسى والاعجاب بالقادة الرجعيين والشوفينية المتطرفة والاستمتاع بالبطش بشعوب المستعمرات .

وتؤكد التجربة العملية فى **البطش بالحركات الشعبية** هذه الاتجاهات الايديولوجية . واذا كان دور الجيش الالمانى معروفا فى هذا الصدد فان دور الجيش الفرنسى لايقل عنه شيئا . فجيش فرنسا الحديث ولد على يد نابليون . وقد عهدت البورجوازية لنابليون بجيشها ثم بمصيرها كله وهو شاب فى العشرينات من عمره يوم أن نصب مدافعه على مدخل كنيسة سان روك فى قلب باريس واطلق نيرانها على الشعب الذى كان يتظاهر ضد «حكومة الادارة» التى كانت قد أطاحت «**بروبسيير**» أعظم الثورين الذين أنجبتهم الثورة الفرنسية الكبرى . واستمر من يومها استخدام الجيش ضد كل حركة شعبية حتى عام ١٨٧٢ حين حطم الجيش ثورة شعب باريس التى كانت قد نجحت فى اقامة أول حكومة شعبية فى العالم « **كوميونة باريس** » واستباح الاحياء الشعبية معملا فيها القتل والاغتصاب والحريق . والجيش هو الذى قام بانقلاب مايو سنة ١٩٥٨ الذى أوصل ديجول الى السلطة . ولكن لما حرص الجنرال العجوز على أرساء سلطته على أصوات الناخبين واخذ يعد للتسليم بالامر الواقع فى الجزائر دبر الجنرالات انقلابا ضده فى الجزائر سنة ١٩٦١ . فلما أختفوا اتخذوا من منظمة الجيش السرى الارهابية وسيلة للتآمر على حياته . وليس ابشع دلالة على التدهور الذى يمكن أن تسوق اليه العقلية السائدة بين ضباط الجيوش الاستعمارية من منظر الكولونيل المهندس « **باستيان شيرى** » وهو ينظم محاولة اغتيال ديجول بنفس الطريقة التى تعمل بها عصابات الاجرام فى شيكاغو الولايات المتحدة .

وأخيرا ، كان تاريخ الجيوش الاستعمارية نسيجا متصلا من **أعمال الغزو والعدوان ونهب المستعمرات** . وزرعت فيها روح القومية الشوفينية المتطرفة التى تجعل العسكرين يرون من الطبيعى ومن الواجب أن تكون بلدهم أقوى البلاد وأن يهزم جيشهم كل الجيوش ، وأن تفرض حكومتهم ارادتها على غيرها من الحكومات . فالجيش أداة الحكومة لتحقيق سياسة التفوق القومى ، والعسكريون فى فرنسا يحلمون دائما امبراطورية نابليون وسيطرته على أوروباكلها وزملاؤهم على الضفة الاخرى من الراين يرفعون شعار « المانيا فوق الجميع » وعلى الضفة الاخرى من بحر المانش « الامبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس » وحتى فى روسيا القيصرية المتخلفة كان العسكريون يؤمنون بضرورة أن ترث « روسيا المقدسة » امبراطورية بيزنطة .. ولعل أرقى مثل فكرى فى هذا الصدد هو كتاب **فون كلاوسفيتز** عن «**الحرب**» الذى يعتبر من أحسن ما كتب فى هذا الموضوع والذى يرسم الاستراتيجية والتكنيك على انها فى خدمة السياسة التى ترسمها الحكومة ، أيا كانت هذه السياسة موضحا فى عبارة غدت مشهورة أن «الحرب ليست الا استمرارا للسياسة بوسائل عنيفة» وهكذا كانت الامجاد العسكرية «التى

تقدس فى الجيوش هى ذكريات الفتح والغزو . وتأكد هذا المعنى على حساب شعوب المستعمرات فكل جيش يزهى بالامبراطورية التى أقامها بحد السيف والاسطورة العسكرية التى تتردد بين الكتائب نسيج من أقاصيص بطش المتحضرين الاوربيين بالبرابرة والمتوحشين فى آسيا وافريقيا فى سبيل نشر الحضارة «الغربية المسيحية» كما يقولون . وأمريكا وهى حديثة العهد « بالمجد العسكرى» تحاول أن تغذى أسطورته بأعمالها البوليسية فى أمريكا الجنوبية وتجربتها الاستعمارية ضد أسبانيا ثم بعدوانها فى كوريا وفيتنام .

والان أين وضع الجيوش فى البلدان الخاضعة للاستعمار من هذه الصورة ؟

أن الدراسة الموضوعية تثبت أن هناك أختلافا عميقا بين وضع الجيوش فى الدول الاستعمارية ووضعها فى البلاد الخاضعة للاستعمار .

فمن ناحية التكوين الطبقى نجد أن الضباط هنا من أبناء البورجوازية المتوسطة بل والصغيرة يحملون آمال تلك الطبقات الوطنية وأفكارها . فالاقطاع فى تهالكه يفقد كل معنى للوطنية . وهو يزدرى كل ما هو وطنى بقدر ما يعجب بكل ما هو أستعمارى . والاقطاعيون يقلدون الاستعمارين فى حياتهم ومأكلهم ومشربهم بل وفى لغتهم ويترفعون عن أبناء جلدتهم . فاذا فكر بعض أبنائهم فى حمل السلاح كمهنة فانهم يستكبرون عادة أن يكون ذلك اطار جيش بلدهم المتخلف المحدود السلاح المستهان بقدره ويفضلون الالتحاق بالجيوش الاستعمارية ذاتها (كالضباط المراكشيين والفيتناميين فى الجيش الفرنسى) أو بالفرق الملحقة بها (كجيش الشرق التابع لفرنسا والفيلق العربى وجيش الهند اللذين كانا تابعين لبريطانيا) . ولا يبقى لجيش البلاد من مورد « للكادر العسكرى » الا نفس الطبقات التى تقدم للدولة كادرها الادارى المتوسط والعالى أحيانا أى البورجوازية المتوسطة والصغيرة . أما الجنود فهم من أبناء الفلاحين معادون للاقطاع ، ثوريون ، يتطلعون لليوم الذى تهب فيه ريح الثورة فتقصف بالنظام الاقطاعى الفاسد الخاضع للاستعمار الذى يمتهن كرامتهم كمنتجين وكجنود وكبشر .

وبمثل هذا التكوين الطبقى يتعذر استخدام **الجيش كأداة بطش بالحركات الشعبية** ، لانه مهما يكن من أمر الانضباط العسكرى فانه ليس من اليسير أن يقاتل الناس ضد آمالهم وتطلعاتهم المشروعة وأن يقتلوا أخوتهم الذين يناضلون من أجلها . ولهذا فالاستعمار لايأمن جانب الجيوش المحلية عندما يشتد أوار المعركة الوطنية ، والاقطاع بفضل الاعتماد على الرماح الاجنبية . بل كثيرا ما يحدث أن ينضم الجيش الى الشعب أو تنضم بعض وحداته على الاقل .

كذلك ليس لبلد مستعمر أن تكون له فتوح ومستعمرات . وليس لجيشه تلك « الامجاد » الزائفة التى تتغنى بها الجيوش الاستعمارية . ان جيوش المستعمرات لم تتمرس بأعمال الغزو والفتوح والعدوان . **وبالتالى لم تترعرع فيها «ابدلوجية» العدوان وأحتقار الشعوب الاخرى .**

لكل هذا كانت الجيوش فى البلاد الخاضعة للاستعمار تحفل بالروح الوطنية . روح تستمدها من تكوينها الطبقى وتستمدها كذلك من وضعها العسكرى ذاته . فأى أمر أشد أيلاما للجندى من أن تكون أرض الوطن منتهكة بجيش أحتلال ، وأن يكون جيشه محدود السلاح ، وأن يفرض عليه المحتل قادة من عنده ؟ أن الجيش فى بلد خاضع للاستعمار يلمس كل يوم وبدرجة عالية آثار هذه التبعية ولابد أن تتأجج فى جنباته دعوة التخلص منها . أن أمجد ذكريات الجيش المصرى الحديث قبل الثورة هى الدور الذى لعبه تحت «**قيادة عرابى**» وزملائه الابطال . وأن أعز أمانيه كانت الثأر **ليوم التل الكبير** بعمل ثورى حاسم ضد الاستعمار وضد الاقطاع الذى استقدم حراب الانجليز ليسند بها عرشا اهتزت قوائمه .

ولا تشذ عن هذا الوضع من بين البلدان التى أصابها الاستعمار بسيطرته الا بعض بلدان أمريكا اللاتينية التى نقلت اليها بعض الاسر الاسبانية المهاجرة عادة تخصص الابن الاكبر للعمل فى الجيش . وساعد حصول هذه البلدان على أستقلالها السياسى فى وقت مبكر منذ أكثر من قرن وربع — على استقرار هذه العادة بحيث ارتبط الكادر العسكرى العالى بطبقة كبار الملاك أوثق أرتباط . ومع ذلك لم تعدم هذه الجيوش ضباطا ثوريين حقا .

وعلى ضوء هذا الفهم لطبيعة وضع الجيوش فى البلدان الخاضعة للاستعمار يمكن أن نستخلص حقيقة بالغة الاهمية : **فى البلدان الخاضعة لسيطرة الاستعمار والاقطاع يكون الضباط والجنود جزءا لا يتجزأ من قوى الثورة الوطنية ، وذلك بالرغم من أن الجيش كجهاز من أجهزة الدولة يستخدم لحماية مصالح الطبقة الحاكمة .**

ومن هذه الوحدة الجدلية بين وطنية الضباط والجنود ونقيضها وهو الدور الرجعى الذى يفرضه

الاستعمار والاقطاع على الجيش تتحدد الظروف التى يمكن أن يلعب فيه الجيش دورا حاسما فى انتصار الثورة . ويمكن ان نلخص هذه الظروف بدورها فى أمرين :

● **نضوج الظروف الموضوعية للثورة** ،أى تفاقم المتناقضات داخل المجتمع الاقطاعى المتحلل بشكل يصيبه بالتفسخ ويفتح الطريق أمام حركات معادية حتى داخل الأجهزة التى يفترض فيها الدفاع عنه

● **وجود تنظيم سياسى يربط العسكريين باهداف الثورة** ، لان الجيش لا يقوم بدور العامل الثورى الحاسم تحت امرة قيادته الرسمية وفى اطار عسكرى خالص . وانما لا بد له من قيادة جديدة تحركه فى اتجاه خدمة أهداف الشعب الوطنية .

تنظيم الضباط الاحتياط

حقا ان التاريخ ليس غنيا بامثلة للثورات التى لعبت فيها الجيوش دورا أساسيا . فالغالب ان حركات الجيوش كانت اما ان تخفق فى مواجهة الاستعمار وتدخله المسلح (كثورة عرابى) واما ان تحتويها الرجعية بعد انتصارها (كحركة كمال اتاتورك فى تركيا) واما ان تحصر نفسها فى دائرة عسكرية خالصة فتفتح الباب على مصراعيه امام سلسلة من الانقلابات العسكرية تنتهى عادة بتصفية دور الجيش كله (كما حدث فى عدد من بلدان امريكا اللاتينية وغيرها) .

ونجاح ثورة ٢٣ يوليو فى بلادنا يرجع الى ثلاثة أسباب رئيسية : **نضوج الظروف الموضوعية للثورة — دور تنظيم الضباط الاحرار — الدور الشخصى لجمال عبد الناصر بعد الاستيلاء على السلطة .**

ولن نطيل الحديث فى نضوج ظروف الثورة فى مصر . فالمد الثورى الشعبى بلغ ذروته فى الكفاح المسلح ضد الانجليز فى منطقة القناة عام ١٩٥١ . وبرز من خلال هذا النضال الوطنى دور الملك والاقطاع فى خيانة الاهداف الوطنية والتعاون مع الاستعمار كذلك اتضح تماما كيف تخلت قيادة حزب الوفد نهائيا عن أهداف الشعب فاتجهت الى الملك لا هم لها الا استرضاءه وخضعت نهائيا لنفوذ الاقطاع والاحتكار (سراج الدين وعبود) وحاولت ان تفرض حلفا رباعيا على البلاد ، فلما اضطرت الى الغاء المعاهدة لم تتخذ اى اجراء جدى لتنظيم النضال الشعبى ، وبينما كان الوطنيون يلقون حتفهم رصاص الانجليز كان عدد من وزراء الوفد يتبادلون الولائم مع السفير البريطانى . وهكذا بلغ سخط الشعب ذروته عندما تامر الملك واعوانه على حريق القاهرة وحين اتخذت حكومة الوفد هذا الحريق ذريعة لفرض الاحكام العرفية واعتقال العناصر الوطنية . وكانت الاحزاب والهيئات الشعبية والثورية عاجزة عن قيادة الحركة الشعبية بسبب تفرق صفوفها وضعف قدرتها التنظيمية وانعزالها عن جماهير الفلاحين . كان الشعب الثائر يتطلع لقيادة تنجز العمل الحاسم فى كل ثورة : تغيير السلطة — وتقدم الضباط الاحرار ليؤدوا هذا الدور التاريخى الذى سيظل الى الابد اكليل غار على هاماتهم .

واول ماينبغى ان تؤكده بشأن الضباط الاحرار هو أنهم كانوا **تنظيما سياسيا** وليس مجرد حركة عسكرية . فهم لم تكن تشغلهم فى المقام الاول مطالب اقتصادية للضباط : كرفع المرتبات أو اتاحة فرص اكبر للترقى .. الخ . بل ان ماكان يشغلهم من أمر القوات المسلحة هو قضايا عاما تهم فى الواقع كل الوطنيين ويجمعها شعار (بناء جيش وطنى قوى) وهم لم يترددوا غداة انتصار الثورة فى البدء بتطهير الجيش نفسه من الضباط غير الاكفاء أو غير حسن السمعة . وفى هذا المجال يتضح أنهم حتى لم يكونوا حركة لصغار الضباط ضد كبارهم فالتطهير شمل عددا من الضباط الشبان ، واذا كانت نسبة الرتب الكبيرة فيه هى الراجحة فذلك راجع للتكوين التاريخى للضباط كما سنرى . واهتمامهم بتعزيز الجيش لم يقتصر على تسليحه أو تحسين مستوى الضباط ولكنه اتجه بشكل أساسى نحو تحسين مستوى الجنود بحيث يكون لهم بحق كرامة الجندى . ومما يدعم هذا الفهم ان الضباط الاحرار لم يكونوا معبرين عن تجمع ضباط الجيش كتنظيم طائفى أو نقابى لهم . وانما كانت صفة « **الاحرار** » معيار تمييز بين العناصر الوطنية المناضلة وغيرها كذلك لم يكن الضباط الاحرار تنظيما لفريق من العسكرين ضد فريق اخر ، لم يكن الامر معركة «جنرالات» ضد بعضهم البعض ، ولا وحدات ضد بعضها البعض ، وانما كان التنظيم يضم ضباطا من كافة الاسلحة وكافة الوحدات مختارين على اساس سياسى . وعلى العكس **كانت القضايا الوطنية العامة هى الشغل الشاغل** للضباط الاحرار تشكل الاطار العام لحركتهم وتندرج فى داخلها القضايا المتعلقة بالجيش . وكانت المبادىء الستة الشهيرة تجسيدا لهذا المفهوم السياسى وتعبيرا عن خط سياسى عام . وكانت منشورات الضباط الاحرار تعالج قضايا الساعة التى تشغل بال كل الوطنيين . واكثر من ذلك ، تعمد الضباط الاحرار الا ينعزلوا عن حركة الشعب فى الحدود التى يسمح بها امان التنظيم . فالى جانب ماأجروا من اتصالات

بمختلف التنظيمات والهيئات السياسية كانت منشوراتهم توزع خارج الجيش ، أى تصل الى الجماهير لتربطها بأهدافهم . وهكذا يتضح أن قيادة الضباط الاحرار — من قبل الثورة — تحرص على الصلة بالجماهير ولا تريد حركة عسكرية خالصة .

ولكن كيف كانت تتحدد **ايديولوجية الضباط الاحرار** ؟ الواقع ان وطنية حركة الضباط الاحرار تقترن بطابع الشباب الغالب عليها . ولم يكن هذا راجعا الى ان الشباب بطبيعه اكثر ثورية واشد نضالا . ولكن هذا الجيل من الضباط الذين تخرجوا فى اواخر الثلاثينيات وفى الاربعينيات كانوا يحملون فى قلوبهم وعقولهم طابع النضال الوطنى فى هذه المرحلة . فاولئك الذين اقبلوا على الجيش عقب معاهدة سنة ١٩٣٦ وماتضمنته من سحب الضباط الانجليز من الجيش وتحسين تسليحه وزيادة عدده دخلوا الجيش فى اللحظة التى خرج فيها الضباط الانجليز . اقبلوا على الجيش فى ظروف لمع فيها بريق امل فى ان يصبح جيشا وطنيا جديرا بهذا الاسم الامرة فيه للمصرين وان يغادر المحتل البلاد ولو بعد حين ، وان يستقر على العرش ملك شاب ولد ابان ثورة ١٩١٩ لم يتلوث بعد بادران الحكم القائم بل ذاعت حوله الروايات عن وطنيته وحبه لمصر وكفى انه كان اول ملك يتكلم لغة البلاد فى غير كلفة

كان هؤلاء الشبان لايبغون مجرد وظيفة وانما يحدوهم هدف وطنى كبير . ولحق بهم جيل الاربعينيات مشبعا بروح الانتصار العالمى على الفاشية وانفجار الحركة الوطنية فى المستعمرات وتطلع الشعوب نحو الاشتراكية ، يحمل فى جنباته انعكاسات المد الثورى الجارف فى البلاد . وهنا يكمن الفرق بين الضباط الاحرار والاجيال القديمة من الضباط التى عاشت حياتها كلها فى ظروف الاحتلال والقهر والسيطرة الاجنبية على الجيش . لقد عاش الضباط الاحرار حياة الوطن فى مرحلة حاسمة من نضاله والامل يحرقهم . عاشوا ليلة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ التى شهدت — بغض النظر عن كل علاقة لما حدث فى مصر بالحرب العالمية — الملك الذى كان انصاره يريدون منه عونا للمقاومة بنصاع لارادة الانجليز ويخضع لتهديدهم ، وحزب الاغلبية الذى كان يريد نفسه مستودعا للوطنية يقبل ان يصل الى الحكم فى ظل الدبابات البريطانية بدل ان يسعى اليه على راس الجموع الشعبية . عاشوا الاشهر المجيدة من ١٩٤٦ وانتفاضة الطلبة والعمال الرائعة ورفض الجماهير للقيادات التقليدية وتطلعها الى قيادة اكثر ثورية واعظم جسارة واشد طموحا . وعاشوا ماساة ١٩٤٨ واغتصاب الاستعمار والصهيونية لفلسطين بمعاونة الرجعية العربية الخائنة . كانوا يحاربون بكل ماوسعهم من بسالة ومن خلفهم ملك يتجر بالاسلحة الفاسدة وحكومة تقظم بعجزها واهمالها وفسادها وخضوعها للاستعمار . عاشوا ١٩٥١ و١٩٥٢ يساهمون خفية فى الكفاح المسلح ونيرون يحرق عاصمة البلاد والفساد يضرب فى ارجاء الحكم المنهار .

ومن خلال هذا كله تكونت ايديولوجية الضباط الاحرار فى معالمها الاساسية : العداء للاستعمار الاعتزاز بالوطنية ، العداء للاقطاع وسيطرة راس المال على الحكم ، اهمية الجيش الوطنى القوى ، اهمية الحكم الوطنى الصالح الذى لا تشوبه تلك الفضائح التى لطخت الحياة الحزبية والتجربة البرلمانية منذ حصلت البلاد على استقلالها الاسمى

وكانت تلك معالم رئيسية كما قلنا ، وجدت تعبيرها فى المبادىء الستة الشهيرة . وكانت تلك المبادىء تلقى ولاشك اوسع تاييد بين القوى الوطنية ، كانت بمثابة نقاط برنامجية يمكن ان تتجمع حوله كل القوى الوطنية من اقصى يمينها الى اقصى يسارها وبغض

مصطفى كمال اتاتورك

ولد فى سالونيك فى ١٨٨١ . لمع اثناء الدراسة العسكرية ولكنه اعتقل يوم تخرجه ونفى الى دمشق حيث كون جماعة سرية باسم « وطنى » ثم ارتبط بجماعة الاتحاد والترقى) التى قامت بانقلاب عسكرى فى ١٩٠٨ وارغمت السلطان على اعادة الحياة الدستورية .

عقب هزيمة الجيوش العثمانية فى الحرب العالمية الاولى لم يقنع الحلفاء بتقسيم اراضيها بينهم بل قرروا ان تحتل كل من اليونان وبريطانيا وفرنسا اجزاء من اراضى تركيا نفسها وقبل السلطان هذه الشروط فى معاهدة سيفر . جمع مصطفى كمال النواب الوطنيين فى انقرة واعلن مقاومة المعاهدة . وقاد بنفسه الحرب حتى طرد القوات الاجنبية جميعا . وقد ساعدته حكومة السوفيت فى نضاله . فبعد عقد معاهدة صلح جديدة فى لوزان الغى السلطنة ثم الخلافة واعلن الجمهورية واخذ يعيد تنظيم تركيا كدولة حديثة وانشا قطاعا عاما لتنمية الاقتصاد التركى . ولكن الطبقة الحاكمة الجديدة اختارت طريق الرأسمالية وبطشت بالحركة الشعبية وارادت ان تجعل من تركيا دولة راسمالية اوروبية .

وفى سنة ١٩٩٤ منحه البرلمان لقب اتاتورك — اى ابو الاتراك — وقد ظل رئيسا للجمهورية حتى مات سنة ١٩٣٨

النظر عن الاتجاهات الفكرية التى تميز بينها من حيث تحليل الثورة او تحديد مداها او بيان وسائلها

وكان تنظيم الضباط الاحرار صورة دقيقة للحركة الوطنية فى البلاد : اجماع على المبادىء الستة وخلافات او على الاقل عدم تحديد ، فيما عداها .

والواقع ان تنظيم الضباط الاحرار ، كتنظيم سياسى عمل فى **ظروف فى غاية الدقة** . فالضباط فى ذلك الوقت محظور عليهم الاشتغال بالسياسة . والسلطات كانت لابد ان تبطش اشد البطش اذا اكتشفت مثل هذا التنظيم او جزءا منه . والكل كان يعرف مدى الارهاب الذى تتعرض له المنظمات الثورية والشعبية . وبديهى ان امتداد التنظيم الى صفوف الجيش كان لابدان يثير الذعر ويستنزل اعنف اشكال الارهاب . ومن ثم كان لابد ان يعمل التنظيم **فى ظروف سرية كاملة وامان مطلق** . ومن المعروف ان مثل هذه الظروف تجعل من المستحيل عمليا عقد مؤتمرات ، او اجراء انتخابات ، او تكوين مدارس للكادر ، او فتح مناقشات فكرية واسعة او .. الى اخر كل تلك الوسائل التى تستخدمها التنظيمات السياسة لتوحيد فكرها السياسى وتعميقه وبلورته . وكان طبيعيا ان ينمو التنظيم حول المبادىء الستة الرئيسية ، وان يترك ماعدا ذلك جانبا باعتباره من التفاصيل .

وهذه السرية المطلقة كانت تفترض روح انضباط عالية ولاشك ان روح الانضباط العسكرى ساعدت على توفير الانضباط التنظيمى المطلوب على اعلى درجة . وربما كان هذا هو الدافع الرئيسى لدى الضباط الاحرار على قصر تنظيمهم على العسكريين وحدهم ، فلم ينشأ لهم «جناح مدنى» يربطهم بقوى ثورية خارج الجيش . ومن ناحية اخرى لم يكن للضباط الاحرار كتنظيم سرى عسكرى القدرة على قيادة النضال اليومى للجماهير . حقا انهم وزعوا بعض منشوراتهم خارج الجيش ولكن لم يكن متصورا ان ينزلوا بانفسهم الى الشارع وان يتحركوا على راس الجماهير . وزاد من هذا الوضع تعقيدا عدم وجود تنظيم ثورى قوى يعبىء الجماهير ويعمل جنبا الى جنب مع حركة الضباط الاحرار ويتفاعل معها . فالحزب الوطنى الذى كان قائما ايام عرابى — مع انه حزب بورجوازى ذو ثورية محدودة — ساعد حركة عرابى مساعدة كبرى على الاقل فى الفترة الاولى . اما فى ١٩٥٢ فقد كانت الاحزاب التقليدية جميعا قد تخلت عن الثورة واهدافها نهائيا وتمرغت فى وحل خدمة الاقطاع والتعاون مع الاستعمار ولم يكن بين المنظمات الشعبية والثورية الحزب الجماهيرى القوى الذى يمكن الاعتماد عليه او التعاون معه .

وهكذا كان على الضباط الاحرار ان يتحملوا وحدهم عبء العمل الثورى الحاسم ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وقد تحملوه بنجاح . ولكن نجاحهم ذاته طرح امام القيادة الثورية كل مشكلات الثورة : تلك التى كانت مؤجلة داخل تنظيم الضباط الاحرار نفسه وتلك التى تولدت بعد الاستيلاء على السلطة .

الجيش وحماية منجزات الثورة

تم الاستيلاء على السلطة اذن تحت قيادة تنظيم سياسى له شعارات سياسية محددة ، ولم يكن الامر ليلة ٢٣ يوليو مجرد انقلاب عسكرى حتى ولو اتخذ شكل انقلاب عسكرى . ومع ذلك كان هناك خطر مؤكد ان يطغى الشكل على المضمون ، وان يقتصر الامر على استيلاء الجيش على الحكم وان يفتح امام قواتنا المسلحة باب المغامرات العسكرية والانقلابات المتكررة . ولكن حمدا لضباطنا ، وحمدا للقيادية الثورية لعبد الناصر التى نجحت فى ان تجعل الثورة رغم كل الصعوبات تاخذ مجراها التاريخى والتى سعت للالتقاء باوسع الجماهير الشعبية تمهيدا للاعتماد عليها فى العمل الثورى .

ولعل **ابرز** علامات هذا الاتجاه هو **سعى القيادة الثورية الدءوب من اجل تكوين تنظيم سياسى جماهيرى** . فمنذ العام الاول للثورة انشئت **هيئة التحرير** ، ثم تلاها **الاتحاد القومى فالاتحاد الاشتراكى** ولم تكن تلك بالمهمة السهلة . فكما اوضح لطفى الخولى فى مقال سابق فى «الطليعة» الاصل ان الحزب يتكون للنضال من اجل الوصول للسلطة واستخدامها كاداة لتحقيق برنامجه ، وماتفرضه عضوية الحزب من تضحية فى سبيل هذا الهدف هو معيار جديته . اما انشاء حزب بعد الاستيلاء على السلطة فيفتقد مثل هذا المعيار ، وسرعان مايتهافت النفعيون والانتهازيون على المشاركة فى الحزب الحاكم مستبعدين منه اكثر العناصر المخلصة والمناضلة . ولكن حرص القيادة الثورية على وجود هذا التنظيم جعلها توالى العمل مرة بعد الاخرى تتلمس الاخطاء وتسعى لتجنبها حتى اكتمل لدينا الان مفهوم التنظيم السياسى بشقية الجماهيرى (الاتحاد الاشتراكى) والطليعى (التنظيم السياسى) وتحددت الاهداف والمعالم الطبيعية .

وكانت السمة البارزة **الثانية** فى نفس الاتجاه هى **حرص القيادة الثورية على عدم الخلط بين العمل العسكرى فى الجيش والعمل السياسى فى جهاز الدولة المدنى** . لقد استعانت القيادة بعدد كبير من ضباط الجيش فى العمل السياسى : فى الوزارة والمناصب الهامة ، فى القطاع العام ، فى

التنظيم الجماهيرى ،فى مجلس الامة.. الخ .ولكنها كانت فى الواقع تستعين بالكادر السياسى المتمثل فى الضباط الاحرار . لم يكن الامر فى جوهره الاعتماد على الضباط لمجرد كونهم ضباطا ، وانما الاعتماد على الضباط الاحرار بصفتهم الكادر السياسى الذى قامت الثورة على اكتافه .وقد انخدع الكثيرون فى هذه الظاهرة . وتحدث عدد من الكتاب عن الطابع العسكرى للدولة فى عهدها الجديد .وذهب البعض الى حد الزعم بان هناك «مجتمعا عسكريا» فى مصر . وكان هذا خطأ بعيدا .فمنذ مارس ١٩٥٤ تم الفصل بشكل واضح بين الكادر العسكرى والكادر السياسى . لم يعد من الممكن الجمع بين العمل فى الجيش والعمل خارجه .وامتنع على الضباط السابقين العاملين ككادر سياسى او فنى ارتداء الزى العسكرى او استعمال الرتب العسكرية واخذوا يندمجون فى الحياة المدنية بحيث لم يبق من تجربتهم فى الجيش الا مايحمله كل سياسى من اثار تكوينه فى سن الشباب ان كان قد بدا حياته مهندسا او طبيبا او محاميا .. الخ .

ولقد تمت بلورة **الاتجاه الفكرى السائد** للكادر السياسى المسئول من خلال صراعات عدة وتحديات مختلفة ، على ضوء تجربة النجاح والخطأ وعلى هدى من مقتضيات تطور الثورة ذاتها .واستبعدت منه العناصر التى وقفت عقبة فى سبيل التقدم او عجزت عن مجاراته . واغتنى الكادر باستمرار بعناصر جديدة بعضها من اصل عسكرى وبعضها له تكوين مدنى . واختير مسئولون من القيادات النقابية والنسائية وجعل جمال عبدالناصر من تقديم المزيد من القيادات الجديدة احدى النقاط الخمس التى تضمنها خطابه الانتخابى امام مجلس الامة فى مارس ١٩٦٥ .

ولكن هذا التطور لم يكن يعنى بحال تحول الجيش الى «جيش محترف» لاعلاقة له بالثورة واهدافها . **بل لقد تطلعت القيادة الثورية الى ربط القوات المسلحة بالشعب وبالثورة .** ووجد هذا الاتجاه **تعبيره الكامل فى الميثاق** حين نص على ان «الجنود والضباط» جزء من قوى الشعب العاملة التى يمثلها الاتحاد الاشتراكى .ولقد مارست وحدات الجيش حقها بمناسبة ترشيح جمال عبد الناصر لرياسة الجمهورية . فعقدت مؤتمراتها وصوتت على ترشيحه وارسلت رايها الى قيادة الاتحاد الاشتراكى . ولاشك ان توفير الاشكال الملائمة لممارسة الضباط والجنود لحقوقهم كاعضاء فى الاتحاد الاشتراكى لابد ان يحقق الترابط العضوى بين الشعب وجيشه .

ولم تقتنع القوات المسلحة بدورها الثورى فى ٢٣ يوليو ، ولابدورها فى الدفاع عن البلاد اثناء العدوان الثلاثى ولكنها مارست على ارض اليمن عملا ثوريا ندر ان نجد له سابقة فقدمت اثمن التضحيات لنصرة الشعب الشقيق .وحين احدقت بجمهورية الجزائر اخطار العدوان كان ضباطنا وجنودنا على التو فى ارضها يقفون بجوار جيشها الوطنى الشعبى وقواتنا المسلحة تستعد دائما لردع العدوان الاسرائيلى على اى بلد عربى . وهكذا تتكون امجاد جيشنا — كاى جيش شعبى — من سلسلة من الاعمال الثورية تتم لصالح الشعوب ومن اجل قضية الثورة والتقدم بعكس «امجاد» الجيوش الاستعمارية التى تتكون من اعمال العدوان والغزو والنهب .

ولابد من التنويه بالقرار الذى اصدره جمال عبد الناصر بالغاء المصروفات الدراسية فى كل الكليات والمعاهد العسكرية لتمكين المزيد من ابناء الشعب — من ابناء الفلاحين والعمال — من دخول هذه الكليات . ويؤكد نفس الاتجاه المدارس المتعددة التى انشاتها القوات المسلحة لتعليم الجنود والارتقاء بمستوى ضباط الصف واكسابهم الخبرات الفنية وفتح سبيل الترقى امامهم بالجد والتحصيل .

واخيرا ثمة تجارب هامة لمشاركة القوات المسلحة فى المعارك الانتاجية التى يخوضها الشعب . ولقد لعبت المصانع الحربية دورا هاما فى حركة التصنيع وفى تكوين جيل كامل من الفنيين قبل اتساع القطاع العام . واليوم تشارك القوات المسلحة فى عمليات استصلاح الاراضى وبناء السد العالى وهكذا لا ينعزل الجنود وهم تحت السلاح عن قضايا الشعب ويتاكد لدى الضباط ان الحرب الثورية فى عصرنا الحديث لاتخاض فقط فى ميادين القتال .

ان القيادة الثورية تحرص على ان يظل الضباط والجنود فى كل لحظة جزءا لايتجزأ من قوى الثورة مرتبطين بالشعب واهدافه مستعدين للدفاع عن تجزاته الثورية . ولعل خير مايخص هذه النظرة قول المشير عبد الحكيم عامر قبل عام «ان القوات المسلحة العربية تنظر الى الشعب باعتباره سيدها ومعلمها» .